

المحافظة على الوقت

بابتسامة استهزاء، ولا ابتسامة فرح، بل وسط بين الأمرين وقال: ألم تسمعي يا ابنتي بقول رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما ابن آدم.. إلخ الحديث؟»

أحسست برعشة شديدة تسري في جسمي النحيل. وقفت متجمدة في مكاني، لا ترى مني حركة ولا يسمع مني صوت. بالتأكيد سمعت بهذا الحديث. لقد كان هو الحديث بعينه الذي درسته ليلة أمس، ولم أفهم معانيه. وقفت حائرة متضعضعة محتارة، تتوارد في رأسي الخواطر والأفكار، يصارع بعضها بعضاً، ويشد بعضها في أثر بعض.

هل يعقل ما أراه الآن؟ إن آخر ما أتذكره هو أنني غفوت في سريري ليلة أمس، ولكنه يبدو لي الآن أن هذا الأمر الذي أتذكره مضى عليه قرونٌ ودهورٌ. وبينما أنا هكذا أضطرب بين يدي الشيخ اضطراب الدوحة المائلة في مهاب الريح الأربع، مرت أمام عيني طائفة من الناس مشرقة وجوههم، ساطعة عيونهم، مبتسمة ثغورهم، يضحكون ضحك الزهراء لقطرات الندى، والنبت لأشعة الشمس. يمشون في خفة ومهارة ولباقة، تبدو عليهم علامات الغبطة والسرور. فسألت الشيخ الكبير: من يكون هؤلاء يا عماد؟ فأجابني بكلماته الوقورة: هؤلاء يا ابنتي هم صفوة الخلق؛ من صحابة وتابعين وأبرار وصالحين. هؤلاء الذين أقاموا تلك الأيام الغر المحجلة المكتوبة بمداد الذهب في صفحة التاريخ. هؤلاء هم الذين نذروا عمرهم لله، وسعوا وراء رفعة دينهم ووطنهم، هؤلاء هم الذين عملوا في كل لحظة من لحظات حياتهم، فلم يأخذ النوم بمعاقب أجفانهم، وهم يرتلون من مكان إلى مكان، سعياً وراء عمل الخير، والدعوة إلى الله،

تأخرت ساعة الليل المدلهم الذي كسا البسيطة السماء هدوءاً وسكوناً.. لا تخترق ظلام السماء الصافية إلا النجوم البراقة التي أخذت تبید بالألوان هذه الظلمات المتكاثفة المسبلة على المخلوقات الغارقة في سبات عميق. في هذه الليلة الشاعرية طال بي السهر، فقد كانت الأيام هي أيام اختبارات وامتحانات. شعرت بقليل من الحرج والضيق.. فطائر الكرى أخذ يحلق فوق أجفاني.. شعرت برغبة لا تقاوم في النوم والاستلقاء.. أنظر إلى الساعة المعلقة فوق مكتبي.. إن عقاربها لا ترحم، تمضي قدماً، لا يقف في طريقها عائق، ولا يحول بينها وبين مرادها حائل. الحمد لله!! لم يبق علي سوى آخر درس في مادة الحديث.. أشرفت على الانتهاء، وهممت أن أغلق الكتاب فلم أقدر، فقد علقت عيني بحديث من أحاديث سيد البشر عليه الصلاة والسلام يقول فيه:

«لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسال عن خمس: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقته، وماذا عمل فيما علم».

أسندت ظهري إلى الورا وقد اختلطت في ذهني الأفكار والمفاهيم، أدركت أن وراء هذه السطور القليلة مئات بل آلاف المعاني، لا أستطيع الوقوف عليها حاولت الاستعانة بمعاني الكلمات المشروحة في كتابي، ولكنني وجدت أنها لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا تروي نفسي المتعطشة التواقة إلى معرفة معانيها ومضمونها البعيد. وأخيراً أغلقت الكتاب وأويت إلى فراشي كسيرة القلب شجيرة الفؤاد لفشلي في معرفة حقيقتها والمراد منها. وأخذت هذه الكلمات تتردد في ذهني، وأنا أحاول النوم، فاسمع صوتاً هامساً يهتف في أذني:

الشباب.. العمر، حتى غرقت في نوم عميق.

رباه! ما هذا الذي أراه؟ ساحة واسعة شاسعة اجتمعت فيها جميع أجناس البشر: من أبيض وأسود، من عربي وأعجمي حاولت التدقيق في وجوههم لعلني أعرف أحداً فلم أعرف. حاولت أن أكلمهم فلم يرد علي أحد. وأخيراً وجدت رجلاً عجوزاً منكس الرأس قد كسا الشيب رأسه ولحيته، فاقتربت منه رويداً، وسألته ضارعة بصوت خفيض:

- يا عماد أين نحن؟ ما هذه الساحة الواسعة؟

- التفت إلي ببطء وأخذ يحملق في، وينظر إلي نظرات غريبة، وكأنه عجب من سؤالي وقال:

- إنه ميدان المحاسبة على الوقت..

لم أصدق ما سمعت، وفغرت فمي دهشة واستغراباً، وقلت له بصوت عال: ماذا تقول؟

نظر إلي وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة غريبة، لا هي





أفلام واحدة

ويقتلنا الألم

شعر: وداد محسن الرادادي

أبكي.. فما تدرون سرَّ بكائي
والحزن يقتل فرحتي وهنائي
أبكي.. فأخفي في الفؤاد مدامعي
كيما أعيش بوحدة وشقاء
عشرون عاما عشتها بهمومها
فسعودها مرهونة بفنائي
هذي عيوني تشتكي ممّا بها
فالداء مزّقها.. فأين دوائي؟!
وفؤادي المأسور بين جوانحي
يبكي أسى من لوعتي وعنائي
سقمّ العيون إلى القبور يسوقني
والسقمّ يأبى في الحياة بقائي
فشكوت ما بي للطبيب لعله
يحيي الفؤاد بفرحة وضياء
لكنمّا هذا الطبيب أهالني
منه الجواب وقد أضاع رجائي
قال الطبيب بأن قلبك لم يزل
يحيى الربيع ببسمة وغناء
قال الطبيب بأن عمرك لم يكن
إلا الحياة بوجهها الوضاء
رفقا طبيبي ما أتيتك ها هنا
إلا وقد كان العذاب إزائي
رفقا طبيبي ما عهدتك قاسيا
أشكو إليك فما تجيب ندائي
أتي إليك فما تريح جوانحي
أتي إليك ممزّق الأشلاء
وتقول أنني في الحياة سعيدة
وبأن عمري عابق الأجواء
كيف الربيع أعيشه مترنما
وازهري تذوي برجع بكائي
هذي حياتي كالسراب تحيلني
طيفا تراءى عند كل مساء
يا من تلوم إذا مضيت وحيدة
مهلا.. فما عرف الطبيب بلائي
هي غربة سأعيشها بمشاعري
فدربما جادت ببعض شفاء

وإعمار هذه الأرض الطيبة، التي جعلها الله مورد رزق لعباده، فكانت لا تطلع عليهم الشمس في مكان حتى تغرب عنهم في غيره. وما هم يلقون جزاء صنيعهم وجهادهم المتواصل. إنهم ذاهبون الآن إلى جنة ربهم، التي طال شوقهم ولهفتهم إليها، فيشعرون بما تشعر به أفراخ الطيور اللاجئة إلى أحضان أمهاتها.

وأقلت دمعة من بين أهداب الشيخ، ثم تنهد، وأخذ يزفر زفرات محرقة ملتتهبة، ثم أشار بإصبعه إلى فئة أخرى كانت تقف خلف الفئة السابقة، وكم كانت دهشتي عظيمة عندما رأيت وجوههم وقد كسيت شحوبا بالغيا، وبدا عليها الامتعاض والضيق، واستطرد الشيخ يقول: هؤلاء هم شباب الزمان الأخير. لقد كانوا مسلمين.. نعم كانوا يؤدون العبادات والفرائض، ولكنهم انغمروا في غمرة الحياة، وغرقوا في لجاج المذات. نسوا حياة الفداء.. نسوا حياة العمل.. نسوا الآمال التي كانت تلهب خيال الشباب مثلهم وتثير أحلامهم.. شغلهم النوم عن العمل، واللعب عن السعي، فأصبحوا بالبهايم أشبه منهم إلى البشر.. لا يهتمهم سوى الطعام والشراب والراحة واللذة.. يسمعون عن الثواب والعقاب فلا تدخل آذانهم إلا كما تدخل إليها تحية الصباح. وما نحن نراهم اليوم حائرين ملتاعين، قد اصطلحوا على الهموم والأحزان، وغربة لا يجدون عليها من أحد من الناس مواسيا ولا معينا. وكدت أن أصعق.. فقد سمعت اسمي ينادى به، وبعد لحظات سمعت صوتا يشبه صوت الأذان، فكأنما سهم رائش مسموم أصم كبدي. وكم كانت دهشتي عظيمة عندما وجدت نفسي قائمة في سريرتي، وقد أذن المؤذن لصلاة الفجر، وبجواني والدتي توقظني لأداء الفريضة. أين ذهب الناس؟ أين هذا الشيخ الكبير؟ هل من المعقول أن تكون كل هذه الأحداث مجرد حلم؟ نظرت إلى الساعة.. يا إلهي! إنها الرابعة والنصف! لم أنم سوى ساعتين. أخذت أجفف قطرات العرق المنسكبة على جبيني.. حاولت التهدة من نفسي المضطربة الهائجة، ولكني أكرهت على إطلاق السبيل لعبراتي ما شاء الله أن أطلقها. فشعرت بآخر الأمر بسكون في نفسي يشبه سكون الدمع المعلق في مجمر العين لا يفيض ولا يغيض. الآن علمت مضمون هذه الكلمات المعبرة وما وراءها من أسرار ومعان. علمت ما ينتظر الناس وخاصة الذين يضيعون أوقاتهم من الحاسبة الشديدة والدقيقة.

لقد كان رأسي متعبا، وأيقنت يقينا لا شك فيه أنني سأنام في بداية الدرس، ولكن لا بأس، فأنا أشعر الآن بسعادة وافرة.. والوقت أنفُسُ ما عنيت بحفظه وأراه أسهل ما عليك يضيغ

ميسون عبدالمك

* سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني رقم ٩٦٤/ المجلد الثاني.